

الأندلسيون في فكر أحمد المقري (أزهار الرياض ونفح الطيب نموذجا)

الأستاذ هلايلي حنفي

جامعة سيدي بلعباس

إذا كان الباحثون والمؤرخون الغرب وبعض المغاربة محظوظين باستمرار للعثور على معلومات تاريخية هامة من المصادر الأرشيفية التابعة لمحاكم التفتيش أول العدول الإسبانية، وكذلك من المخطوطات الأحميادية بمدريد والمتعلقة جميعها بالتاريخ المورييسكي. فإن المصادر العربية قد ألفت أضواء جديدة حول عدد من التساؤلات. ومن هذا المنطلق فإن المعلومات التي أوردها المقري بخصوص الأندلسيين من خلال كتابيه: "نفح الطيب وأزهار الرياض" تقدم لنا إطارا جديدا للأندلسيين ومن جهة أخرى منحتنا هذه الروايات معلومات مفيدة حول مشاعر الكره والحقدهم ضدهم ومواقف السلطات الإسبانية تجاه موضوعهم.

يهدف بحثنا إلى دراسة موضوع الأندلسيين من خلال فكر أحمد المقري، وذلك لدقة هذا الفضاء التاريخي حيث حاولنا تسليط الأضواء على أهمية العنصر الأندلسي في الكتابات التاريخية للمقري، وهذا من خلال كتابيه (نفح الطيب وأزهار الرياض) وهما لا يزالان مصدرين رئيسيين للباحثين في تاريخ الأندلس والمغرب العربي. ونحن بحرصنا على دراسة مأساة المورييسكيين الحضارية بالأندلس، استنادا إلى مضامين الإشارات التاريخية التي تعرض إليها المقري بخصوص صرخة الأندلسيين واستغاثتهم بالسلطات العثمانية بواسطة قصيدة شعرية أوردها في "أزهار الرياض"، وهي طويلة في نحو مائة

الأندلسيون في فكر ----- أ. هلايلي حنفي
بيت⁽¹⁾ وظروف الهجرة الأندلسية الأخيرة (1609-1614م) نحو بلدان المغرب العربي من
خلال "نفخ الطيب"⁽²⁾.

ولد أحمد المقرئ ونشأ وتثقف في تلمسان (986-1578م)، وقد ظل وفيًا لهذا
التكوين الأصلي حتى وهو يتمتع بالجاء والحظوة في القاهرة ودمشق، وكانت مصادره
تعتمد أساسًا على الروايات ومعارفه كشاهد عيان لما وقع في الأندلس في حياته أو ما
أخذ من الجيل الذي سبقه من أهل الأندلس المطرودين⁽³⁾. ومن الواضح أن إنتاج
المقرئ غزير وحياته خصبة وتأثيره كبير، وكان يذكر محاسن تلمسان وجمالها وهو في
المغرب والمشرق وكان يقارنها بفاس ودمشق. وتؤكد بعض الدراسات إلى أن الفتن التي
عاشتها الجزائر في بداية العهد العثماني هي السبب في هجرة المقرئ نهائيًا من تلمسان
إلى فاس⁽⁴⁾. وأوجب المقام في هذا الصدد أن الوطن كان دائمًا في ذاكرة المقرئ وهو
ما أشار إليه في هاذين البيتين:

بلد الجدار⁽⁵⁾ ما أمر نواها* كلف الفؤاد بحبها وهواها.

(1) شهاب الدين، أحمد المقرئ، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف
والترجمة، 1939م، ج1، ص109-115.

(2) أحمد المقرئ، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، (تحقيق: د. إحسان عباس)، بيروت: دار
صادر: 1968م، ج4، ص528.

(3) أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1981، ج2،
ص221-233.

(4) كثرة هجرة علماء تلمسان إلى المغرب خلال فترة المقرئ، وأشار إليها ابن مريم في كتابه: البستان،
وابن سليمان في كتابه: كعبة الطائفين.

(5) بلد الجدار هي تلمسان.

الأندلسيون في فكر ----- أ. هلايلي حنفي
يا عاذلي في حبها كن عاذري * كفيك منها مأوها وهواها⁽⁶⁾.

و يمتاز المقرئ بمعاصرتة للأحداث (986-1041هـ/1578-1631م)، إذ عاش في نهاية القرن السادس عشر، وبداية القرن السابع عشر الميلادي، مما سمح له بمعاصرة الأحداث التي تحدث عنها، خصوصا المتعلق منها بالأندلس. إن المعلومات التي احتوت عليها مصادر المقرئ، تقدم لنا إطارا جديدا حول إثارة موضوع نداءات الاستغاثة الموجهة إلى السلطات العثمانية بعد سقوط غرناطة (1492م). ومن جهة أخرى منحنا "أزهار الرياض" معلومات مفيدة حول ظروف هجرة الأندلسيين في اتجاه بلدان المغرب العربي ومواقف الأهالي من ذلك.

أولا: نداء الاستغاثة الشعري:

لقد حفظ لنا المقرئ القصيدة الشهيرة التي وجهها الأندلسيون إلى الدولة العثمانية في شخص سلطانها بيازيد الثاني (886-918هـ/1481-1512م)، وهي قصيدة يستصرخ فيها صاحبها السلطان العثماني ويستغيث به لنصرة إخوانه المنتصرين⁽⁷⁾، ويصف له ما تترله إسبانيا المسيحية برعاياها الجدد وما يصيبهم من تعسف ديوان محاكم التفتيش.

(6) أزهار، ج 1، ص 6.

(7) تتفق معظم الدراسات على أن مصطلح الموريسك (Moriscos)، استعمل بعد سقوط غرناطة للدلالة على المسلم الذي دخل المسيحية حديثا، وقد درج المؤرخون على استعمال مصطلح الموريسكيين كدلالة تاريخية للتعريف بآخر مسلمي الأندلس أو العرب المنتصرين، الذين فرض عليهم التنصير القسري ما بين (1499-1526)، وبقي أحفادهم حتى عمليات الطرد النهائي سنة 1609م.

للمزيد من التفاصيل راجع: سيمون، الحايك: "الدراسات الموريسكية في الخمس والعشرين سنة الأخيرة في إسبانيا"، في أعمال المؤتمر العالمي السادس للدراسات الموريسكية الأندلسية حول (وضعية الدراسات

الأندلسيون في فكر ----- أ. هلايلي حفي

ومن المرجح أن هذه الرسالة أو القصيدة، وجهت بعد انتفاضة البشارت (1501م)، وما تلاه من إجراءات القمع ضد العرب المنتصرين، وذلك حوالي سنة 1505م، وهي تلخص وضع آل إليه المسلمون في الأندلس بعد سقوطها بيد المسيحيين عام 1492م⁽⁸⁾. لقد كان سقوط غرناطة (1492م) نهاية للحضارة العربية الإسلامية بالأندلس، وانتصارا للحضارة الغربية المسيحية، فالإسبان جعلوا من سقوط الأندلس مؤشرا لحركة الاسترداد، وتوحيد إسبانيا دينيا وجغرافيا. وقد تضمنت بنود معاهدة تسليم غرناطة حقوقا وامتيازات للمسلمين، سرعان ما تحولت إلى سياسة قمعية وخرق الاتفاقية المبرمة بين الطرفين الإسلامي والمسيحي، فاستهدفت تنصير وتهجير العناصر الإسلامية قسرا من غرناطة⁽⁹⁾. وإليك بعض ما ورد في تلك القصيدة المؤثرة في وصف أنواع الاضطهاد والتعسف الذي نزل بالموريسكيين، بعد دياجة نثرية قصيرة ودياجة شعرية طويلة في تحية السلطان العثماني بايزيد:

سلام كريم دائم متجدد * ص به مولانا خير خليفة.

الموريسكية الأندلسية في العالم خلال الثلاثين سنة الماضية)، (جمع وتقديم: د. عبد الجليل التميمي)، زغوان: سيرمدي 1995، ص 25-27.

(8) حول مضمون هذه القصيدة راجع: ليلي الصباغ: "ثورة مسلمي غرناطة عام 976 هو أواخر عام 1568 والدولة العثمانية" مجلة الأصالة، عدد 27، الجزائر سبتمبر-أكتوبر 1973، ص 118-119 وأيضاً: محمد عبد الله، عثمان نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ط4، القاهرة مكتبة الخانجي، 1987، ص 346-347.

- يلاحظ أن انتفاضة (1501م) قد تسببت في اتخاذ قرارات تعميم ودمج الموريسكيين.

(9) أسعد، حومد، محنة العرب في إسبانيا، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980م، ص 127-128، وأيضاً: أحمد رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1991، 107-116.

الأندلسيون في فكر ----- أ. هلايلي حنفي

سلام على مولانا ذي المجد والعلی * و من ألبس الكفار ثوب المذلة.

سلام عليكم من عبيد تخلفوا* أندلس بالغرب من أرض غربة⁽¹⁰⁾.

وانطلاقاً من هذه الأبيات يبدأ مشهد المأساة الموريسكية من مختلف الجوانب الإنسانية والحضارية والثقافية، فمن خلال المادة الشعرية التي بين أيدينا، يمكننا حصر هذه المأساة من خلال ثلاث مراحل كبرى⁽¹¹⁾:

1. التنصير القسري:

تؤكد الوثائق المكتشفة في أرصدة محاكم التفتيش أن الإسبان لم يحترموا بنود معاهدة تسليم غرناطة، وحاربوا كل ما هو غير كاثوليكي، ووزعت محاكم التفتيش بيانا كاشفا عن مظاهر اتباع الدين الإسلامي للوشاية بالمسلمين. وقد تسبب هذا البيان في محاكمة الآلاف من المتهمين الذين وقعوا في فخ الوشاية والحقْد والانتقام، وحكم على الباقين بالسجن والجلد * والاسترقاق والتهجير⁽¹²⁾.

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم * بدأ غدرهم فينا ينقص العزيمة.

وخان عهودا كان قد غرنا بها * ونصرنا مرها بعنف و سطوة.

غدرنا ونصرنا وبدل ديننا * ظلمنا وعوملنا بكل قبيحة⁽¹³⁾.

(10) أزهار، ج 1، ص 109.

(11) Djemaa. Chikha. « Les Morisques dans la poésie Andalous » : in, ASI du C.I.E.M sur « Religion : identité et sources documentaires sue les Morisques Andalous ». Tunis. 1984, T1, pp. 171-180.

(12) لوي، كاردياك، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: المجاعة الجدلية (1492-1640م)، (تعريب وتقديم: د. عبد الجليل التميمي) تونس: الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، 1989، ص 114-115.

(13) أزهار، ج 1، ص 113.

الأندلسيون في فكر ----- أ. هلابي حنفي

كان الأندلسيون بين رحي التعذيب والمجرة قبل فرض سياسة التنصير وحيث وجب ألا يغيب عنا أن الدين قد أثر على فكر وسلوك الإسبان خلال القرن السادس عشر. وعليه فإن التعصب الديني كان قابعا في سياسة ملوك إسبانيا إذ تولد عنه الخوف المستمر من بقاء المسلمين بإسبانيا وتواصل الفتوحات العثمانية في شرق أوروبا، لهذا لجأت الحكومة الإسبانية إلى تعميم الإرغام على التنصير، والواقع أن النصوص الشرعية صورت مختلف الواجهات لسياسة التنصير:

أ. الاحتفال بالشعائر الدينية:

كان لزاما على الموريسكيين حضور مختلف الطقوس المسيحية، وإلا يتعرضون لمصادرة أملاكهم أو السجن وهذا ما سجلته الأبيات:

ومن لم يجي منا لموضع كفرهم * يعاقبه اللباط شر العقوبة
ويلطم خديه ويأخذ ماله * ويجعله في السجن في سوء حالة⁽¹⁴⁾.

وللسير قدما في تطبيق سياسة الاندماج، قررت السلطات الإسبانية تحت إشراف الأساقفة، أن كل الموريسكيين يجب عليهم تلقي مراسيم دفن كنسي وأنه يتحكم عليهم دفن موتاهم في نفس مقابر المسيحيين.

ومن جاءه الموت ولم يحضر الذي * يذكرهم لم يدفنوه بجيلة.
ويترك في زبل طريقا مجلدا * كمثلى حمار ميت أو بهيمة⁽¹⁵⁾.

وقد توبع المورسكيين من قبل رجال الكنيسة وأعوان محاكم التفتيش على الصلاة والصوم، ومنعوا من تأدية الشعائر الإسلامية.

(14) المصدر نفسه، ج 1، ص 112.

(15) أزهار، ج 1، ص 112.

الأندلسيون في فكر ----- أ. هلايلي حنفي

ومن صام أو صلى ويعلم حاله * في النار يلقوه على كل حالة.

و في رمضان يفسدون صيامنا * بأكل ورب مرة بعد مرة (16).

وظل الموريسكي متسكعا بعبادته، وهو في السجن وتحت وطأة التعذيب وسيتحول هذا الشعور إلى حقد المسيحيين على الموريسكيين، ويتطور بشكل سريع ليتنقل من حقد ديني إلى حقد عام وشامل لجميع التقاليد والعادات الموريسكية.

ب. التقاليد والعادات:

أجبر المسيحيون المرأة الموريسكية على التبرج وأكل الخنزير والجيفة وبالاختلاط مع الأجانب بالإضافة إلى عدم التلفظ باسم النبي محمد عليه الصلاة والسلام بل بشتمه أيضا وهذا ما يوضحه البيت التالي:

وقد أمرونا أن نسب نبينا * ا نذكره في رخاء ولا شدة (17).

2. الإقصاء الحضاري:

تميزت هذه المرحلة بقيام الموريسكيين بعشرات الثورات ضد التعسف، فكانت نتيجة السياسة اندلاع ثورة في حي البيازين بغرناطة عام 1502م (18). ومما لا شك فيه فإن الملكين الكاثوليكين (إيزابيلا وفرديناند: 1474-1516م) كانا على اتفاق مع رجال الدين بأعمال التنصير القسري. فقد كان هؤلاء يؤمنون بأن وحدة العقيدة والروح هي الأساس الأول الذي يمكنه من توحيد إسبانيا الجزأة، وتمسك المسلمين بدينهم يقوي أواصر الصلة بينهم وبين إخوانهم بالمغرب وفي العالم الإسلامي، ولا سيما مع الدولة العثمانية، ومن ثم فإن تنصير المسلمين أو إخراجهم هو الضمان الوحيد

(16) نفسه.

(17) نفسه

(18) ليلي الصباغ، المقال السابق، ص 119.

الأندلسيون في فكر ----- أ. هلايلي حنفي
لسلامة إسبانيا ووحدها.⁽¹⁹⁾ وقد واكب هذه السياسة أن اقتلعت إسبانيا جذور
الموريسكيين التاريخية من الناحية الدينية والثقافية والاجتماعية:
أ. الناحية الدينية:

تعمقت روح الكراهية عندما أصدرت السلطات الأوامر بحرق المصاحف
والآلاف من الكتب العربية الحاملة للعلوم والثقافات والتي قدرها المؤرخون بعشرات
الألوف⁽²⁰⁾. وكان الهدف من وراء هذه العمليات الإقصائية هو طمس معالم الحضارة
العربية الإسلامية بالأندلس وفي هذا السياق تشير القصيدة:
و أحرق ما كانت لنا من مصاحف و خلطها بالزبل أو بالنجاسة.
وكل كتاب كان في أمر ديننا * ي النار ألقوه بهزء وحقرة⁽²¹⁾.
ب. الناحية الثقافية:

لقد تم القضاء على الموروث الحضاري الإسلامي الذي خلده الأندلس عبر
الأجيال زهاء ثمانية قرون، حيث تشير القصيدة إلى ذلك صراحة:
ولم يتركوا فيها كتابا لمسلم * ولا مصحفا يخلى به للقراءة.⁽²²⁾
ج. الناحية الاجتماعية:

منعت السلطات الإسبانية الموريسكيين من ارتداء الملابس العربية وأجبرتهم على
تغيير أسمائهم العربية الإسلامية إلى أخرى إسبانية مسيحية.

(19) Fernand, Braudel. La méditerranée et monde méditerranéenne à l'époque
de Philippe II. Paris. Armand colin. 2ed. 1966, p.577.

(20) محمد عبد الله، عنان، المرجع السابق، ص.346.

(21) أزهار، ج 1، ص112.

(22) نفسه.

الأندلسيون في فكر ----- أ. هلايلي حنفي

وقد بدلت أسمائنا وتحولت * بغير رضا وغير إرادة. (23)

وبالحاح من البابا بروما أصدر ملك إسبانيا فيليب الثاني (1556-1598م)

قرارات ذات تدابير صارمة في حق الموريسكيين منها توصيات اقترحها رجال الكنيسة
يمكننا حوصلتها في النقاط التالية:

- منع استعمال الألبسة العربية.
 - إجبار الموريسكيين على ترك أبواب بيوتهم مفتوحة أيام الجمعة والأعياد.
 - يمنع النساء من التنظيف ودخول الحمامات.
 - يمنع على المرأة الزواج طبقا لمبادئ الشريعة الإسلامية.
 - منع الآباء من تلقين أبنائهم الشعائر الإسلامية.
 - إجبار الأطفال على حضور الحفلات الدينية المسيحية في الكنائس (24).
- وقد تعرض الموريسكيين الذين كانوا يعيشون في مختلف مناطق الأندلس إلى
إبادة جماعية وهذا حسب ما ورد في القصيدة:

وقد بدلت أسمائنا وتحولت * بغير رضا منا وغير إرادة (25).

فسل وحرًا عن أهلها كيف أصبحوا * آسارى وقتلى تحت ذل ومهانة.

وسل بلفيقا (26) عن قضية أمرها * لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة.

ومنيقة (27) بالسيف مزق أهلها * كذا فعلوا أيضا بأهل البشرية (28).

(23) نفسه.

(24) لوي، كارديناك، المرجع السابق، ص. 43

(25) نفسه.

(26) قلعة بالمرية أنظر: أزهار، ج 1، ص 41.

(27) البشارات جبل بمنطقة غرناطة.

الأندلسيون في فكر ----- أ. هلايلي حفي
والدرش بالنار أحرق أهلها بجامعهم⁽²⁹⁾ صاروا جميعا كفحمة⁽³⁰⁾.

3. الطرد:

ومن المعروف أن ترتيبات إقصاء الموريسكيين من إسبانيا وطردهم كان من أسبابه الجهرية المقاومة المستمرة التي أبداهها المسلمون في الأندلس طوال خمسة أجيال (1492-1609م)، لذلك أصدر فيليب الثالث (1598-1621م) بتاريخ 22 جمادى الثانية 1018هـ الموافق ل 22 سبتمبر 1609م، مرسوما ملكيا يقضي بطرد جميع الموريسكيين. وجاء تبرير الملك حول هذا الطرد "... لقد حاولت منذ سنين طويلة على تنصير موريسكي هذه المملكة وإصداري لقرارات العفو المتتالية في شأنهم وبمساعدي رجال الدين في تحويلهم إلى ديانتنا المقدسة لكنهم أصروا على التمسك بدينهم..."⁽³¹⁾

ويتبين لنا عند دراسة بداية المأساة الموريسكية أن نداءات الاستغاثة بدأت بمراسلات مسلمي غرناطة للسلطات العثمانية ومطالبة بيازيد الثاني التدخل لدى البابا بروما، ومطالبة الاسبان باحترام حرية الأديان بمثل ما يحظى به الرعايا المسيحيين في البلاد الإسلامية ومن جهة ثانية السماح لهم بالهجرة وهذا تحدده الأبيات التالية:

فسل باهم أعني المقيم برومه * بماذا أجازوا الغدر بعد أمانة.
وما لهم مالوا علينا بغدرهم * بغير أذى من غير جريمة.

(28) ربما يكون حصنا بالمرية أيضا، أنظر: D.Cheikha. Op.cit, p 177.

(29) المصادر التاريخية العربية والمسيحية تؤكد على مثل هذه الجرائم والمثلة في المقابر الجماعية المكتشفة في إسبانيا في سنة 1980 وهي تؤكد على صدق هذه الأبيات وكأنها ليست من نسج خيال البشري.

(30) أزهار، ج1، ص112.

(31) M. Garcia arenal. Los moriscos, Madrid. Biblioteca de visanarios. 1975,pp.251-254.

الأندلسيون في فكر ----- أ. هلايلي حنفي

وقد بلغ المكتوب منكم إليهم * فلم يعلموا منه جميعا بكلمة. (32)

والذي شجع الموريسكيين على الهجرة صدور فتاوى من طرف فقهاء المغرب والتي أكدت على وجوب الهجرة "... أن الهجرة من أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة... ولا تسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية (الملك) لعنة الله على معاقلهم وبلادهم إلا قصور العجز بكل وجه، وحال الوطن والمال، فإن ذلك كله ملغى في نظر الشرع..." (33). وتحذر الإشارة هنا إلى أن الفتوى تنصح وتحذر الأندلسيين وتشجعهم أيضا على الهجرة، وكأنها تحضر الأجواء النفسية والمادية لاستقبال اللاجئين في الضفة الأخرى من العالم الإسلامي وهذا على الصعيدين: الشعبي والرسمي.

ومن شاء من البحر مؤمنا * بما شاء من مال إلى أرض عدوة (34).

والواقع أن إسبانيا قد استغلت رخاء الأندلس من خلال هجرة الموريسكيين في بداية منتصف القرن السادس عشر، وهذا بفضل مصادرة أملاكهم وإرهابهم بالضرائب. والمتتبع للأحداث التاريخية يلاحظ بأن الأجواء والخلفيات التي حفت صدور الطرد، كانت نابعة من إرادة سياسة محضة. لكن القصيدة التي أوردها المقري في "أزهار الرياض" تعكس وجهة القرار الذي كانت أبعاده أعمق بكثير حيث تتجلى في البعدين البسيكولوجي والاقتصادي معا. فعلى الصعيد البسيكولوجي، كان قرار الطرد يسبب الخوف والقلق المستمر من طرف الإسبان شعبا وحكومة الذين شاهدوا

(32) أزهار، ج1، ص 113-114.

(33) الونشريسي، المعيار والجامع المغرب في فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب (إشراف محمد حجي) بيروت: دار الغرب الإسلامي. 1981، ج2، ص 121-122.

(34) أزهار، ج1، ص 108.

الأندلسيون في فكر ----- أ. هلايلي حنفي
بأعينهم تصاعد الثورات والرفض المطلق الذي أبداه الموريسكيين ضد سياسة التنصير
والإدماج. أما على الصعيد الاقتصادي فيتضح من خلال الحقد والانتقام النابع من
نفسية المسيحي تجاه الموريسكي الذي عرف بنشاطه التجاري والحرفي المميز بالرخاء في
إسبانيا المسيحية.

ثانيا: الهجرة الأندلسية الأخيرة:

وفيما يتعلق بالمرحلة الأخيرة من الهجرة الأندلسية (1609-1614م)⁽³⁵⁾ والتي
أعقبت قرار الطرد الجماعي للموريسكيين من إسبانيا في فترة حكم فيليب الثالث، فإن
الجهات الساحلية للجزائر قد استقطبت أعداد كبيرة من المهاجرين قسرا بواسطة
السفن الإسبانية. فبعد صدور مرسوم نفي مسلمي بلنسية بتاريخ 28 سبتمبر 1609م
تم ترحيل 28 ألف موريسكي إلى ميناء دانية و15 ألف أخرى إلى ميناء بلنسية وقد
حملتهم السفن الإسبانية على نفقاتها الخاصة إلى مدينة وهران، بينما اعتمد المهاجرون
الآخرون على أنفسهم في استئجار السفن والإبحار صوب السواحل الجزائرية⁽³⁶⁾.
ولجأت إسبانيا إلى نقل الموريسكيين رأسا إلى السواحل الغربية من إيالة الجزائر، خاصة
وهران والمرسى الكبير وأرزيو ومستغانم، بحيث استغلت السلطات الإسبانية فرصة
تواجدها العسكري في كل من وهران والمرسى الكبير لتسريب الآلاف من
الموريسكيين نحو هذه المناطق. وقد عرفت الجزائر خلال هذه المرحلة هجرة مكثفة من

(35) ناصر الدين، سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني) الجزائر: المؤسسة الوطنية
للكتاب، 1984، ص133.

(36) عرفت الجزائر هجرة أندلسية واسعة خلال مراحل الهجرات الثلاث الكبرى نحو المنطقة. المرحلة
الأولى تمتد من 1212م (سقوط الحفارات الإسلامية بالأندلس كقرطبة 1236م، بتبسة 1283م،
إشبيلية 1284م)، المرحلة الثانية تبدأ بسقوط آخر قلعة عربية إسلامية بالأندلس وهي غرناطة 1492م.

الأندلسيون في فكر ----- أ. هلايلي حنفي
الموريسكيين الذين بلغ عددهم في مطلع القرن السابع عشر حوالي 25 ألف موريسكي⁽³⁷⁾. ونظرا لأهمية الهجرة الأندلسية في المرحلة الأخيرة، أدت إلى تعبير المقرئ في كتابه "نفخ الطيب": "... فخرجت ألوف بفاس، وألوف آخر بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس... " (38).

وقد كان من نتائج التركيز المتواصل على وهران ومرسى الكبير في هذه العملية أن ضاقت المدينة وما جاورها بالموريسكيين. وتشير تقارير ربان السفن الذين شاركوا في هذه العملية الكبرى والموجودة بالأرشيف الإسباني (Simancas)، حيث تعرض علينا قوائم ومعلومات هامة حول عدد الموريسكيين الذين تم نقلهم وجنسهم (رجال، نساء، أطفال) ومكان نزولهم بالسواحل الجزائرية. فبتاريخ 17 أكتوبر 1609م، قاد المركز سانتاكروز (El marquis de santa cruz) 17 سفينة أبحرت من إسبانيا⁽³⁹⁾ متجهة نحو وهران، وهي تحمل على متنها حوالي 3406 موريسكي⁽⁴⁰⁾. وبعد أن ضاقت المدينة وما جاورها بالموريسكيين، أمر حاكم وهران الكونت "دي أقيلا" (Le duc d'aiguillon) بتاريخ 07 أكتوبر 1609م من القبطان المركز سانتاكروز، قيادة ستة سفن لتحمل 6000 موريسكي، والعمل على نقلهم رأسا إلى المرسى الكبير. وبتاريخ 22 أكتوبر 1609، طلب الكونت دي أقيلا من ربان السفن الإسبانية لويس فراخدو

(37) ناصر الدين، سعيدوني: الأندلسيون (الموريسكيون). بمقاطعة الجزائر دار السلطان أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، حوليات جامعة الجزائر، العدد 7، الجزائر، 1993، ص 113.

(38) المقرئ، نفخ الطيب، ج 4، ص 528.

(39) أهم الموانئ الإسبانية المستعملة لترحيل الموريسكيين يومذاك هي: دانية، أليكانت، قرطاجنة

ألفاكي، بلنسة، غراو، فيناروس.

(40) Henri. Lapyre. Géographie de l'Espagne Morisque, Paris, S.E.V.P.E..N, 1959, p.57.

الأندلسيون في فكر ----- أ. هلايلي حنفي

(Luis Fajardo) وخوان خيرونيمو (J.Jeronimo)، من قيادة سبعة سفن حمل 3000 موريسكي إلى ميناء أرزيو ومزرغان. كما تفاوض المسؤولون الإسبان مع قبائل المنطقة قصد مساعدتهم من أجل تسهيل عملية نقل الموريسكيين نحو تلمسان ومستغانم، وكانت هذه القبائل العربية تشمل (أولاد موسى، وأولاد إبراهيم، وأولاد سيدي عبد الله، وبني عامر)⁽⁴¹⁾.

وتجدر الإشارة هنا أن بعض القبائل الوهرانية تعاونت مع الإسبان وأخلصت لهم من ناحية الولاء والطاعة. وكان على رأسها قبيلة قيزة ويقال لهم "جيدرزة" وهم فرقة من بني عامر، وكان مسكنهم بنواحي "تارقة" ولهم قوة وبطش وفتك بالمسلمين وعددهم نحو الثلاثة عشر دوارا، وسموهم للصوص¹. بالإضافة إلى أولاد عبد الله وهم فرقة من بني عامر أيضا، كان مسكنهم بملاطة، يبلغون الستين دوارا. وكانوا عوناً للإسبان بالمنطقة الغربية للجزائر².

وأثناء انتقال المهاجرين الأندلسيين من وهران إلى المناطق المجاورة تعرض لهم الأعراب في الطريق ونهبوا أموالهم، حيث تذكر بعض المصادر أن بعض القبائل الوهرانية، كانت تقوم بأعمال وحشية ضد المهاجرين، فتفقر البطون آملة أن تجد فيها المجوهرات وتعمل على تجريدهم من كل ما يملكون وسار على هذا النهج المؤرخ أبو راس الناصري في كتابه "عجائب الأسفار" في حديثه عن المهاجرين الأندلسيين عمنا ارتكبه قبيلة (هيرة) بمناة أرزيو من تعذيب وتقتيل حتى أن هيرة بطشت بالأندلس:

(41) Chakib, Benafri. ENDALUS te Son Musuluman Kalintisi Morisko larin Cezayir, GOCU Osmanli yardi Mi (1492-1614). Ankara. 1989, pp.116-117.

1- عبد القادر، المشرفي، بمحة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبان بوهران من الأعراب كبني عامر (تحقيق وتقديم: محمد بن عبد الكريم)، بيروت: دار مكتبة الحياة بدون تاريخ.

2- المصدر نفسه، ص 29-30.

الأندلسيون في فكر ----- أ. هلايلي حنفي
"... يبقرون بطوفهم لما يظنون من ابتلاع جواهر..."¹. مما دفع بالشيخ محمد أقدار
الوحيي الذي استنهض الشيخ أحميدة العبد وحته على أن يغزو بعشائر سويد على
سبيلة هبرة (بين المحمدية وسيق)². هذه الرواية فيها نوع من التزييف للحقائق والإفراط
في المبالغة، فسوء المعاملة يمكن تخيله (و حتى قبوله)، لكنه يستبعد العمل الشنيع السالف
الذكر صدوره من قبائل متحضرة، وعلى علم بإخوان لهم في الدين، ونظرا لما كان
يتمتع به الأندلسيون من رغد ورفاهية في العيش قبل المرحلة لسقوط غرناطة.

إن بعض الرواة الغربيين والمغاربة مجمعون على أن بعض الموانئ والمدن بالمغرب
العربي قد أساءت استقبال الموريسكيين، وخاصة في وهران وتلمسان حيث قام البدو
بسلبهم وقتلهم. وقد كتب المؤرخ الإنجليزي شارل لي (Lea) حول هذا الموضوع: "لم
يكن مسلموا تطوان متسامحين ... وقد أضيفت إلى الموريسكيين مأساة جديدة وهذا
إلى درجة أن لم يكونوا فرحين ليعملوا أن هناك موريسكيين مسيحيين ثابتين في دينهم
وقد رجحوا أو قتلوا، وهذا نتيجة رفضهم دخول المساجد، وفي البلاد المغاربية وكقاعدة
عامة، كانت آلام المهاجرين شنيعة جدا. وعندما نزلوا بوهران سعوا لتبني خطة إنشاء
دولة موريسكية ... ولا شك أن الموريسكيين لم يكونوا يدركون الوضعية العامة، إلى

1- أبو راس محمد، الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، (تحقيق: محمد محي الدين)، القاهرة:
مطبعة السعادة، بدون تاريخ، ص 85

2- ابن سحنون، الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني (تحقيق وتقديم: المهدي البوعبدلي)،
قسنطينة: منشورات التعليم الأصلي، سلسلة التراث، 1973، ص 27-28.

الأندلسيون في فكر ----- أ. هلايلي حنفي

أن عاينوا بأنفسهم كره العرب البدو لهم، وأنهم لا يرغبون الآن إلا في الرجوع إلى إسبانيا ليموتوا مسيحيين...¹.

ولعل الصورة تبدوا أكثر وضوحا إذا حاولنا رصد ما كتبه المقرري في "نفخ الطيب" حيث لم يشر إلى عملية بقر البطون والتقتيل، بل ذكر: "... فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أمواهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس، ونجا القليل من هذه المعرة..."² ويفهم من سياق هذه الرواية أن الموريسكيين لاقوا على أيدي إخوانهم بمنطقة تلمسان وفاس سوء المعاملة والمعاناة لا غير.

ومهما يكن من انتقادات لهذه الروايات، فإن بعض الباحثين المعاصرين تبنوا مثل هذه المواقف بهذه الفترة الحرجة، محللين إياها بشكل غير متوازن، وهو الأمر الذي جعلهم يركزون على الطابع غير الإنساني والسلبى لمواقف بعض الطبقات الاجتماعية للأهالي³. هذه الوضعية الناجمة عن الفوضى الإدارية والسياسية للمغرب، كونها ظاهرة تاريخية قديمة، والمتتمثلة في الصراع القبلي ونهب الأملاك لم يستطع النظام العسكري العثماني القضاء عليها، على أساس أن الجزائر كانت دار جهاد ومحور صراع دائم مع القوى المسيحية في المنطقة⁴.

1- شارلي، العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة (تعريب: حسن الكرمي)، بيروت: منشورات دار لبنان للطباعة والنشر، 1988، ص 212. يحاول المؤرخ الإنجليزي لي أن يقارن موريسكي وهران بالهورناتشين (Hornachos) الذين هاجروا إلى المغرب واستقروا بقصبة الرباط، واسسوا مدينة سلا الجديدة.

2- المقرري، "نفخ الطيب"، ج4، ص528.

3 - Ortiz, Domonguez, et Vincent. Bernard. Historia de los Moriscos Tragedia de una minoria. Madrid. Biblioteca de la revista de occidente. 1978. pp.225-245.

4- أبو القاسم، سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص141

الأندلسيون في فكر ----- أ. هلايلي حنفي

وإذا كان بدو وهران وتلمسان قد نهبوا أو سرقوا أملاك و ثروات الموريسكيين الذين حلوا بالساحل الغربي للجزائر، دون أن يقع القصاص عليهم، فهذا غير معقول لأن الأهالي لم يكونوا على علم بمأساة الموريسكيين السياسية والدينية، وعلى الخصوص حول نتائج طردهم من الأندلس، بل تم نهب هؤلاء الموريسكيين بسبب مظاهر ثراء البادية عليهم. ومن هذا المنطق تطرح التساؤلات التالية:

- هل كانت السلطات تعلم بما ارتكبه البدو في حق الموريسكيين؟
 - وهل كان هؤلاء واعون بعملية النهب والسلب التي مارسوها تجاه هؤلاء الموريسكيين الذين التجنوا إلى الساحل المغربي لالتماس الأمن والحماية؟
- وحتى تموقع هذين الحداثين الهامين في هذه الدراسة، فإن قصيدة الاستغاثة المدونة في أزهار الرياض جاءت لتخليد الموريسكيين في الشعر الأندلسي وهو في لحظات الاحتضار الأخيرة. فهذه الأبيات الشعرية تنم بالرغم من ركاكتها عن دقة مدهشة، في تتبع أعمال السياسية الإسبانية بمطاردة العرب المنتصرين وفي هذه إجراءات قمع محاكم التفتيش وعقوباتها. والظاهر أن صاحب القصيدة كان من الكبراء المتضلعين بالشؤون العامة زمنئذ. وعليه فإن المعطيات التي ذكرها المقرئ في نفخ الطيب بخصوص الهجرة الأندلسية الأخيرة، لا تترجم في الواقع إلا على مظهر من تفاصيل سوء المعاملة التي تعرض لها المهاجرون. ولا شك أن المعلومات التي أوردها المقرئ من شأنها تساعدنا على فهم نفسية المهاجرين وموقف الأهالي والسلطات حول عمليات السلب والنهب التي مورست في حق الموريسكيين.